عشيات وادي اليابس

ديوان الشاعر الاردني مصطفى وهبي التل

مسكين مصطفى وهبي التل الشاعر الاردني ، فلقد كان حظه في الحياة بائساً ، وكان حظه في مماته تعساً .

حتى ديوانه لم يقدر له ان يظهر كاملاً ، فالقصائد التي ضمها الديوان « عشيات وادي اليابس » جاءت اشلاء مبعثرة ، كما كانت ايام مصطفى وهبي التل ساعات مبعثرة ، لا يربطها سلك ، ولا يحتويها نظام .

عاش مصطفى في جو مكهرب ، وكان هو نفسه قلقاً مضطربا لا يستقر على حال ، ولا يستطيع ان يعين ما يريده بالضبط . وكانت اوضاع الديار الاردنية مخضرمة ، فيها شيء كثير من بقايا النظام التركي والتفكير التركي ، وفيها طراز من التفكير القبلي ، ولون من الاقطاعية العائلية ، وكان اتجاه ذوي السلطة يرمي الى الاعتماد على الغرباء عن الاردن واهمال ابناء البلاد اهمالاً يكاد يكون مقصوداً ، لان الرجل الغريب اذا سخط عليه صاحب السلطة فاقتلعه من منصبه فقد الانصار والاعوان وعاد الى التملق والخضوع بحكم ارتباط مصيره بمصير ذي السلطة ، يظهر الخضوع والتملق وان كان يبطن غيرهما ، اما ابن البلاد فيُخاف بطشه ويُتهاب صولته ، لذا كان ابناء البلاد يقصون عن المراكز الحساسة بحكم تلك السياسة التقليدية التي اتبعها رجال الحكم من العصر العباسي الى ايامنا هذه . واذا استخدم واخلص عد عليه اخلاصه جريمة وخنق بشبكة من الجواسيس الذين يحصون عليه انفاسه ويحولون كل فضيلة له رذيلة .

لمس مصطفى كل هذه الامور فوجه كلمته مدوية مثقلة بشظايا قلبه :

هيه رمز الاماني والمنى انهم حيات رقطاء تفح
لا يغرنك تقبيلهم يدك اليوم وتقريض ومدح
فغداً سوف ترى موقفهم منك يا مولاي ان ابرم صلح
فترى الاردن ان لم يرو من مائه الغياض لن يرويه رمح

رأى هذا فكان لا بد له من ان يسلك احدى هذه الطرق : اما ان يسكت فيعدد اياماً ويقبض راتباً ، او ان يجاهر برأيه فيظل طريداً جائعاً ، او ان يخاتل فيهجم مع الذئب ويهجع مع الغنم كما يقول الارادنة .

اجل ، لقد هاجم فهادن ولاين فاخذ يتقلب في مناصب حكومية كان ينال اكثرها ثمناً لسكوته المؤقت ، او تشهيراً به ليرى المعجبون به ان هذا البطل الحامل راية الوطنية ان هو الا عبد لراتبه ، مطية لمنصبه ، فادرك ذلك وثار على نفسه وعلى اصحاب المناصب كافة :

« لا تنخدع بالبنطلون ولا تثق بجمال زيه
ما كل زخرفة إبا وكل خطب عنجهيه
كم فارس هو في الحقيقة عند راتبه مطيه »

ادرك ذلك فطلب ما يفرج به عن نفسه فلم يجد جدثاً يدفن فيه همومه وآلامه الا الخمر فاقبل عليها إقبال المنتحر على قدح السم يتجرعه يأساً لاحبّاً به :

دعوني بهذا الكاس والطاس التقي صروف الليالي كلما خطبها لجّا
يقولون إني ان شربت ثلاثة فلا خير للاردن من همتي يرجى
تقي ان من يهديه حب بلاده وان ادمن الصهباء لا يخطىء النهجا

وقد كان له في سكره فكرة خاصة وهي انه ليس للحياة قيمة بلا سكر وعربدة ولاسيما في الامم المستعبدة :

هات اسقني ما للحياة بغير عربدة مزيه
واسبأ لنا ان الزقاق مباءة الامم السبيه
واشرب على نطي كما تأتم بالشيخ المعيه

ينظر مصطفى فيرى الدهر نفسه قد سكر فيرى ان من واجبه هو ان يماثل دهره فيقول :

سكر الدهر فقل لي كيف اصحو والندى يبخل والجود يشح
وحياتي لا تسل عن كنهها انها حان والحان وصدح
واماني شباب فاتها مثلما فات بني الاردن نجح
سكر الدهر ولم يفطن الى سكره حر ابي النفس قح
ضربوا الامثال بي عربدتي فلسكري عندهم فن وشرح

ثم يقول :

سكران قد صدقوا ورب محمد اني اخو طرب فتى حانات
اسقي واشربها واعرف انها رجس ومن عمل اللعين العاتي

اذاً فقد كان يدفن همومه وآلامه بالخمر ، ولاسيما بعد ان عرف تماماً انه توهب له تلك المناصب للتشهير به ولكم فهه ، عرف ذلك حق المعرفة فنقم على المنصب ، ونقم على الحياة ، وعلى وضعه المالي الذي يرغمه على قبول المنصب ، فاذا هو

يصرخ قائلاً :

ان الزمان ولا اقول زماني بين الطوابع والرسوم رماني
واحال لذاتي وساوس حاسب يهذي بضرب ثلاثة بثاني

وظهرت نقمته بصورة واضحة صريحة بقوله :

اليك عني القاباً واوسمة قد ارهقت بضروب الخزي عنواني
رأسي لربي وربي لن اطأطئه ولن اذلك يا نفسي لانسان

ولكن على الرغم من ثورته على نفسه وعلى المنصب فانه كان يضطر للمهادنة احياناً ، لان السجن والنفي والتشريد علماه ان يهادن احياناً ، لان اتهامه بالكفر والالحاد في بلد ما زال الله فيه تحت الوصاية ، لما يبلغ سن الرشد ، ولا اعلن استقلاله، جريمة . فاهل الشرق على الله خائفون ابداً وهذا جعله يدافع عن نفسه من غير ان يدفع عن نفسه الكفر ، من غير ان يدفع عن نفسه معرة السكر والعربدة، لانه يقول ان كفره وسكره لا يضران احداً :

ماذا على الناس من سكري وعربدتي
ماذا على الناس من كفري وايماني
ماذا على الناس من لهوي ومن عبثي
ماذا على الناس من جهلي وعرفاني
ماذا على الناس من قولي لهم احد
ربي وقولي لهم ربي له ثاني

وبعد ان يقرر انه لا يضر احداً سوى نفسه ان كان في ذلك ضرر ، يثور على القوم ثورة غماء الجبين :

قالوا ذوو الشأن في عمان تغضبهم صراحتي لذا افتوا بجرماني
قالوا ذوو الشأن في عمان قد برموا بمسلكي واصطفاني رهط مجان
واستنكروا شر استنكار هروليّ الى الخرابيش مع صحبي وندماني
ما كان اصدق هذا القول لو عرفت عمان مذ خلقت انسان ذا شان

اذاً فهو ينكر ان يكون تاريخ عمان مذ خلقت قد عرف بشراً يستحقون الاحترام لكي يظهر مصطفى امامهم بشيء من الجد والرصانة والحكمة ، فما دام الدهر سكران فعلام يصحو هو ؟ واذا كان الناس كلهم حقارة فلماذا يطلبون منه هو الجد والرصانة؟ انه ينتقم من حقارتهم بخروجه على تقاليدهم واوضاعهم ونظمهم . اذاً فمصطفى كان يثور لكي ينتقم لنفسه ، وينتقم للاردن من محتقري اهله ، يثور للاردن الذي يراه ضحية ويراه بقرة حلوباً لا ينعم بلبنها الا الغرباء . هو يعلم ان ابناء الاردن كلهم بقايا عشائر عريقة تمردت على نوب التاريخ وعلى حوادث الزمن ، فجاءت الايام تذلهم في ديارهم فثار مصطفى على ذلك الوضع ، فلم يجد ما ينفس به عن نفسه سوى الاندماج في معشر النور، فيهب لحسانهم قلبه، ويهب لزعيمهم احترامه، لانه بعد ان قرر في نفسه انه ليس في عمان من يستحق الاحترام ادار وجهه الى زعيم النور يضفي عليه احترامه لينتقم من كبرياء كل متكبر، فخرابيش النور في رأيه مدينة فاضلة :

بين الخرابيش لا عبد ولا امة ولا ارقاء في ازياء احرار
ولا جناة ولا ارض يضرجها دم زكي ولا اخاذ بالثار
ولا قضاة ولا احكام اسلمها برداً على العدل اتون من النار
بين الخرابيش لا حرص ولا طمع ولا احتراب على فلس ودينار
الكل زط مساواة محققة تنفي الفوارق بين الجار والجار
والهبر يرفل في نعمى تشرده بين الكواعب محفوفاً باقمار

والهبر زعيم النور بجسمه المكتنز الضخم المنعكس شحماً ولحماً رآه مصطفى اجدر الناس باحترامه . فاذا قيل له ان الهبر جاء عمان استقبله مصطفى بالشعر استقبال الفاتحين بقصيدة (عودة الهبر) :

الهبر عاد وان عوداً مثل عود الهبر يحمد
فالهبر في دنيا الهمالة رغم انف الفضل اوحد
فاعرف مكانك من مكانته الرفيعة يا معود

واذا ارجف المرجفون ان الهبر مات رثاه :

اين جمشيد اين كايوكباد اين زالا زالوا جميعاً وبادوا
وعلى الهبر قد رسا مثلهم . بالامس في مصفق المؤن المزاد
هبر حتى حمير قومك اذ تنشج مغزى نشيجها انشاد

ولعل مصطفى وهبي التل يقلد احمد الصافي النجفي الذي اراد تحقير لقب الاستاذ لانه لقب غبياً استاذاً :

وغبي سميته استاذا وهو في جهله من الافذاذ
قال هل رمت رفعه قلت كلا رمت اسقاط كلمة الاستاذ

اذاً فمصطفى بمدحه للهبر يريد اسقاط كل منزلة وخفض كل شعر ، واحتقار كل مديح ، لان الهبر في نظره اسمى من كل الذين يمدحهم الناس ، وتسخر القوافي لتمجيدهم .

واذا علم ان المدعي العام لم يستقبل الهبر في (اربد) ثار ثائره فقال :

يا مدعي عام اللواء وانت من فهم القضيه
الهبر جاءك للسلام فكيف تمنعه التحيه
ألإن كسوته ممزقة وهيئته زرية ؟
قد صده جنديك الفظ الغليظ بلا رويه
وأبى عليه ان يراك فجاء ممتعضاً اليه
يشكو الذي لاقاه من شطط بدار العادليه
ويقول ان زيارة الحكام لا كانت بليه
فاسرع وكفر يا هداك الله عن تلك الخطيه
وادخله حالاً للمقام وفز بطلعته البهيه
ودع المواسم والرسوم لمن عقولهم شويه
فالهبر مثلي ثم مثلك اردني التابعيه

ثم يتطرق بعد ذلك الى نقد الاوضاع قائلاً :

يا هبر بي فقر كفقرك للاباء والحميه
اوما تراني قد شبمت على حساب الاكثريه
واكلت بسكوتاً وهذا الشعب لا يجد القليه
ولبست إذ قومي عراة غير ما نسجت يديه !

فالضغط والمطاردة والارهـــاق جعلت مصطفى يعتز باردنيته ، ويفاخر باقليميته ، ويحاول حصر هذه الاقليمية في حدود ضيقة جداً ، فكانت الاقليمية من العناصر البارزة في شعره بروز الخمر والنور والحسان ، وتمجيد الصعلكة والمتصعلكين .

اما تمجيده للخمر فواضح في اكثر ما نظم :

الا من يشتري بالحان والالحان تقوانا ؟
بسمر صلاة اسبوع ببعض الكاس ملآنا
واجود صنف تسبيح بذكر الله ربانا
يباع وجلة بالكمش لا يحتـــاج ميزانا
فهـــل وبهـذه الاسمار شارية بعمانا ؟

اما الحسان فقلبه مولع بهن اشد الولع :

او مـــا تراني والمشيب بعارضيه
مازلت خفاق الفؤاد ولم تزل نفسي طربه
والقلب ما تنفك تملأ ساحه خطراتميه
دنف تطارده العجوز ، ولا تهادنه الصبيه
ان القدود المأدبية والعيون العجرميه
اشواقها ستظل في قلبي وان اوديت حبه
ولسوف تبقى للصبابة في ثرى رمسي بقيه
وهواي سوف يظل يهزأ بالقبور وبالمنيه!

ولعل اروع ما رأينا لشاعر غزل ابيـــات من قصيدته « تسوّل شاعر ! » :

بين الانين وغصة الذكرى ابعمـد بعمر ينقضي عمرا

الى ان يقول :

سكرانة الالحاظ مرحمة حني علي بنظرة سكرى
من عينك اليمنى فان بخلت فتصدقي من عينك اليسرى

اما هيامه بالنور ونقمته على السياسة فلست اريد ان اعرج عليهما لانهما من الامور المشهورة .

اما تصعلكه فواضـح في كثير من المواطن ولاسيما في قصيدته « اخواني الصعاليك ! » :

قولوا لمعبود على القول يشفيني ان المرابين اخوان الشياطين
وانهم لا اعز الله طغمتهم قد اطلعوا ارغم تنديدي بهم ديني

الى ان يقول :

ان الصعاليك اخواني وان لهم حقاً به لو شعرتم لم تلوموني
فالعزل والنفي حباً بالقيام به أسمى بعيني من نصبي وتعييني
ان الصعاليك مثلي مفلسون وهم لمثل هذا الزمان الزفت خبوني
والامر لو كان لي لم تفرحوا ابداً من اجل دين لكم يوماً بسجون
فبلطوا البحر غيظاً من معاملتي وبالجحيم ان استطعتم فزجوني
فما انا راجع عن كيد طغمتكم حفظاً لحق الطفارى والمساكين

لا اريد ان اقف عند هجاء مصطفى فهو هـائل مخيف ، وعندي منه قصيدة مدمرة وقد تحرج هو من نشرها وكان كما ذكر لي يرحمه الله في كتابه المخطوط الي قـد تحرج من نشر « عشيات وادى اليـــابس» هرباً من ضيق المحيط الفكري .

حقـاً لو ان مصطفى كان له لون يثبت عليه ومبدأ يقف عنده لكان ذخيرة من اعظم الذخـائر ، ولهز بمفرده الديار الاردنية . لكنه كان حائراً قلقاً فحطم نفسه ، وبعثر جهوده وصار في آخر ايامه يكتب اشعاراً وكنايات رمزية مخيفة ، لكن قلما التفت اليها الناس لانهم لم يدركوا الغرض منهـا ، اجل لقد مال الى الرمزية لانه شعر أنه لم يعد مخيفاً كما كان ايام شبابه ، وأحس ان رجال الحكم لم يعد يهمهم رضي ام غضب بعد ان عرف النـاس ان الشاعر قلق الموقف مزعزع البنيان .

اما شعره فلو نشر كله لكان سجلاً حافلاً بتاريخ الاردن، وعلى اي حال فان المؤرخ الاجتماعي والمؤرخ الادبي والمؤرخ السياسي لا بد لهم من الوقوف عند شعر مصطفى وهي التل للافادة منه في تاريخ الديار الاردنية. وعندي – ان كان لي عند – ان مصطفى لو وجد في بيئة منطلقـــة لجاء بروائع انسانية خالدة ، ولافاد الفن اعظم فائدة ، لكن حسبـه ان طبعه الاصيل قام له مقام الفن، فشعر مصطفى لا اثر للتكلف فيه ، وليس يعيبه في رأينا انه حصر جهوده في هذه البقعة من الدنيا ، ولا انه كان اقليمياً ضيق الاقليميـة لان روائع الادب الانساني الخالد اكثرها اقليمي محلي الطبقة .

لقد كانت المتطلبات التي واجهها مصطفى ، تهدم الجبال ، لكنه تخطاها بجرأة كانت تخشاهـا العمالقة في بعض المواقف. وحسبه انه صور الاردن صورة صادقة دقيقة طريفة.

روكس بن زائد العزيزي

المصابيح الزرق

بقلم حنا مينه

منشورات « دار الفكر الجديد » ـ بيروت ، ٢٩٠ ص

•

في هذه الآونة الاخيرة ، دخل الاستاذ حنـــا مينه محراب الادب من مدخله الرئيسي . فتح الابواب الكبيرة ودخل منها متجهـــاً بخطى وئيدة ولكن ثابتة ، الى صفوف المتقدمين . وقليلون هم الكتاب الذين يتاح لهم ما اتيح له ، إذ انهم قليلون اولئك الذين تصاحب صدور اثرهم الاول هذه الموجة من الاستحسان التي صاحبت صدور رواية « المصابيح الزرق » . سيقال : فلنشكر ايضاً الجو الذي كان مواتياً لظهور رواية تتحدث عن أحوال الناس وحيواتهم والحرب وما تتركه فيهم من أثر ... ولكنني اقول ايضاً إن ظهور الكاتب الذي يعالج هذا كله باسلوب فني بعيد عن اللهجة التعليمية او اللهجة الخطابية المخيفة ، هو الامر الذي يمكن ، الذي يجب قبل كل شيء ، ان نحييه ونهنىء أنفسنا به كاشخاص يهمهم الأدب ، ويهمهم تشجيع كل محاولة عربية جديدة في فن الرواية تمهد الطريق وتضع الاسس لهذا النوع الذي يعتبر من أهم ابواب الادب الحديث ، إن لم يكن أهمها جميعاً .

ولقد كان يمكن للمرء أن يقول إن هذه الرواية افضل من رواية اخرى سبقتها وضعها عندنا الكاتب فلان ، او انها أسوأ ، او انها قد تفضل رواية كذا من هذه الناحية أو تلك . ولكن الامر المرعب هي انها تقف وحيدة في بابها عندنا ، انها الاولى من نوعها . فابداً لم تعالج الرواية في سوريا على النحو الذي اتجاه الكاتب وفي الاتجاه الذي سار به. كانت هناك بالطبع روايات الدكتور شكيب الجابري ، وكانت هناك في دمشق رواية او روايات ، ولكنها تختلف جميعاً عن رواية « المصابيح الزرق ».

فن الكتاب من يصل الى الادب دون ان يمر بالحياة. فهم يكتبون ما يدعونه « بالفن الصافي » ، ولكن حنا مينه لم ينزع الى هذا الشرف ولم يتشوف إلى هذه « القيم الفنية العليا »... انه انسان بسيط طيب ويتحدث عن أناس بسطاء ، ولكن قد لا يظهرون دوماً طيبين ـ لأن الحياة علمتهم ان لغة الناب والمخلب هي الدارجة في ظروف حياتية معينة . ولهذا كانت قصته تختلف عن القصص الاخرى التي ظهرت في سوريا حتى الآن .

ولهذا بالذات ايضاً جاءت روايته مجموعة لوحات يحكي فيهـــا تاريخ حياته بين الناس . لنلاحظ بسرعة ان حياة الكاتب اليوم تبدو منسجمة مع مـــاضيه الذي قصه علينا في « المصابيح الزرق » . إن اول رواية طويلة يكتبها اي كاتب تكون في أغلب الاحيان قصة حياته هو بالذات ، أو على الاقل قصة تتصل بحياته هو باسباب كثيرة. ومن خلال «المصابيح» نرى أن حياة حنا كانت أبداً كما يعرفها اصدقاؤه اليوم : حياة لا يحياها لنفسه ، داخل نفسه ، بل للناس وبين الناس . من الكتاب ـ وأعتذر عن كل هذه الاعتبارات العامة التي أطلقها في مجال الحديث عن رواية بعينها ـ من يفضح سريرة نفسه فيما يخط على الورق ، وخصوصاً عندما يأخذ في كتابة روايته الاولى . إنه مسوق لأن يبتح من ذات نفسه وأن يقول للقارىء : «تعال اقرأ ما في خفاياي » أما صاحب المصابيح فلم « يفضح » ما في سريرة نفسه من امور مخبوءة ، بل يصح ان نقول إنه « كشف » عما في نفسه ، فاذا الصفة الغالبة عنده هي الطيبة وهي الأخوة الانسانية .

كان يقال في مجال الكلام عن اندريه جيد : « إن الناس مجمعون على الاعجاب بالكاتب ومجمعون على ضرورة تحريمه باسم الصحة الخلقية » . ومثل هذا القول لما يعزز وجهة نظر المعجب بالمصابيح ، لأنهـــا جمعت ، الى درجة مشرفة ، ما بين فضيلتي الاتقان الفني والصحة الخلقية معاً. فالكاتب هنا يقف بصراحة في صف المقويات ، وهناك يقف الكاتب في صف السموم. ومن عجب ان بعض الكتاب لم يفهموا بعد طلبة أمتنا في ظرفها الراهن ، وهي أن قارىء العربية اليوم لم يعد بحاجة الى « الافكار » والى الاتجاهات الابداعية او الجمالية ، بل انه يطلب بكل بساطة ان يكون للكاتب موقفه من الحياة وان يحترم الواقع .

المصابيح الزرق إذن قصة عاشها حنا ، أو أنه ـ وهـــذا الاصح ـ عرف اشخاصها الرئيسيين واحداً واحداً ، ورآهم يعيشون ويسعون وراء الحياة . عرفهم في علاقاتهم الاجتماعية وفي سرائر حيواتهم . وعندما جاء يتحدث عنهم تمكن من ان ينظم حيواتهم في قصة تتوازن فيهـــا فيما بينها وتنسجم ، وتتناغم مع حياة بلدة بكاملها في فترة زمنية معينة هي فترة الحرب العالمية الثانية .

في مطلع الرواية قدم داراً كبيرة تعيش فيها مجموعة أسر تتوسط عقدها عائلة فارس الشاب اليافع وأبيه وأمـــه ، التي ستظل في مركز الصدارة حتى آخر الرواية . ويسير بالقصة ، فيقدم الشخوص الرئيسيين الآخرين واحداً بعد واحد ، إمـا في علاقات فارس بكل منهم او علاقاتهم بالآخرين . فهذا ابو رزوق الصفتلي ، وهذا جريس المختار ، وهذا بشارة القندلفت ، ثم هذا هو الغني الأبله عبد المقصود ، وهذا رشيد افنـــدي الكاتب العجوز في معمل التبغ ، وهذا محمد الحلبي «القبضاي» الذي تتمثل فيه كل « الرجولة العضوية » اذا صح التعبير . ان الكاتب في جميع هذه الحالات يلقي الانوار عـــلى ابطاله واحداً بعد واحد عـــلى النحو الذى تقدم به السينما وجوه الابطال في اعلانها عن الفيلم الذى ستعرضه في الاسبوع التالي. وهو يعتمد هذه الطريقة الى درجة تشتم منها رائحة « الهواية » آخر الامر ، اذ تراه لا ينفك عن تقديم شخصيات جديدة حتى أواخر الرواية . (شخصية مكسور المبيض مثلاً لا تدخل في حياة مجموعة الابطال وحياة البلدة الا بعد ان نقطع في الرواية نيفاً ومائتي صفحة من أصل ٢٩٠) .

وثمة طريقة اخرى يعتمدها في ابراز معالم هؤلاء الشخوص وتثبيتها في ذاكرة القارىء . هي انه يحـلي كلاً من شخوصه بـ « لازمة » خاصة يخدع بها القـــارىء ـ على نحو سعيد وبنجـــاح ـ ويسهل عليه مهمة التمييز فيما بينهم . فالصفتلي يتحدث دوماً عن ماضي حياته الفاشلة في المهجر ، والقندلفت يروي ذكريات أمجاده النسائية ، ولازمة المختـــار هي كلمة : « الظروف استثنـــائية ! » التي يتخلص بها من كل ورطة ،

ولازمة الكاتب رشيد افندي هي صيحته: «اجردوا جرداً؟» يوجهها في كل حين الى عاملات التبغ ...

بل ان المؤلف ليذهب الى ابعد من هذا في حرصه على ان يجعل من ابطاله نماذج تبقى حية في اذهان القراء. فهو اضافة الى ما سبق، يعطي اسم الشخصية مقرونة لا بالكنية التي تعترف عليها هويته الحكومية، بل بصفة اراد الكاتب ان يقرنها به. فالمختار لا نعرفه طول الرواية الا بهذا الاسم: جريس المختار، وليس له من كنية اخرى. والاسكافي ليس اسمه عازر كذا، بل عازر الاسكافي، وكذلك بشاره القندلفت الذي يمارس عمل القندلفت في بعض الكنائس حقاً، ثم مريم السودا التي «لا تعود كلمة سودا الى كنيتها بل الى لونها» (ص ١٥) واخيراً خليل النجار ومكسور المبيض.

وكأنما هذا النهج لدى الكاتب في تقديم الشخوص في طريقة يفضلها على غيرها، او انها هي طريقته وليس لنا ان نطلب اليه اكثر منها. فهو في تقديمه لحوادث القصة ايضاً فصولاً او مشاهد، لا نقول انها منفصلة عن السياق (انها على العكس، من صميم الحوادث) ولكنها تكاد تكون هذه المرة **لوحات** خاصة، او مواضيع للوحات حية منتزعة من حياة مدينته اثناء الحرب. ففي دكان المختار يدور فصل عاطفي لطيف مع ارملة لعوب ينتهي بمأساة صغيرة في الشارع، وفي دكان بيع الكاز لوحة، وفي الفرن لوحة، وبائع الزر المتجول وحده لوحة، وصيد السمك لوحة، وحكاية عبد المقصود ليلة الغارة لوحة ...

ان اللوحات هنا، والنماذج البشرية هناك، أمور تغني الرواية، لا هذه فحسب، بل كل رواية. ولكن المشكلة تتعقد بعض الشيء عندما يتعلق الكاتب بالنماذج ويتشبث بفكرة تقديم اللوحات، حتى تستحيل هذه وتلك وسواساً أو غاية ينشدها لذاتها. ولعل من حسن الحظ ان حنا الذي كاد في وقت ما يقع في هذا الشرك، استطاع فيما بعد ان يتخلص منه الى حد بعيد، وبخاصة فيما بعد النصف الثاني من الرواية. لقد رأيناه ينساق في هذا المزلق على نحو متأن وئيد مرات، أثناء تقديم نماذجه ولوحاته، وعلى نحو يثير الحنق في حالات اخرى، كما هي حاله في بداية احد المقاطع اذ يقول: «اما ما حدث لعبد المقصود فهذا تفصيله ...» (ص ٩٢)، وقوله في مقطع آخر: «وعرف فارس خلال الايام الأولى للسجن بتجارب كثيرة مريرة هاك بعضها ...» (ص ١٤١) وفي الحالين يروح يقص التفاصيل، ويسوق الامثلة، بعد ان أيقظ عطالة القارىء ونبه ذهنه الى انه مقبل على معرفة اشياء او حوادث او تفاصيل جديدة كان الكاتب قد اخفاها عنه لسبب ما، وها قد حان اوان الكشف عنها ...

في وسعنا من هذه الزاوية أن نقول ايضاً إن الكاتب يحب أبطاله، ويتعلق بنماذجه، إلى درجة لا يستطيع ان يكره معها احداً منهم، ولا ان يكرّه القارىء بأحد منهم. فعبد المقصود الغني الأبله مثلاً، لا يحس نحوه القارىء بالبغض، انه يشفق عليه. وحتى رشيد افندي الكاتب المأجور الذي يمتص دماء عاملات التبغ، لا نكرهه بقدر ما نحتقره، رغم ان دماغه «مصفح بالبغضاء لكل من حوله» (ص ١١٠). لهذا نرى المؤلف يعيش مع ابطاله في ساعات فرصهم التي يسترقونها استراقاً من حياتهم الصعبة، ويعيش معهم في اوقات غضبهم حتى تكاد تحسبه واحداً منهم يشعر بمحنتهم اعمق ما يكون الشعور بالمحنة: «حينئذ هاج الناس وعصف بهم غضب جموح وأثار مرأى الدم فيهم جوعاً مزمناً الى القتال، جوعاً الى حطم اي شيء، الى تمزيق الاسار الذي يلف حياتهم ويذلها، الى تقطيع الخيط الرهيب الذي يقيد ذواتهم ويمرغها، الى توكيد انسانيتهم واثبات حقهم على هذا الشكل الأمثل لاثبات الحق ...» (ص ١٠٧). هذه الغضبة المضرية ليست مصطنعة، إنها صميمية عند اناسي اللاذقية وغير اللاذقية، وبعد، عند الكاتب الذي هو واحد منهم، يعبر عما في نفسه بمقدار ما يعبر عما في نفوسهم.

كان هؤلاء الناس عرضة لكل نوع من انواع الحرمان والاستغلال، وجاءت الحرب فزادت الطين بلة، لانها رفعت الاسعار واختفت مع قدومها من الاسواق كثير من المواد الاساسية. وفي مقابل ذلك، زاد جشع مستسنحي الفرص والنفعيين والاستغلاليين. «أيها اقوى ... الفلاحون ام الشركة؟» يتساءل مثلاً كاتب شاب إذ يرى تحكم ممثل الشركة بزارعي التبغ من الفلاحين المعدمين (ص ١١٧)، ولكن سؤاله يبقى معلقاً بلا جواب. وفي مكان آخر يتساءل فارس: «أيها اقسى ... السجن ام البطالة؟» (ص ١٨٢)، بعد سنة ونصف قضاها في السجن بسبب معركة في فرن حسن حلاوة استبسل فيها طلباً للخبز. وتساؤله هذا ايضاً يظل دون جواب.

اجل، يظل دون جواب ولكنه لا ينسى ، لا يتلاشى ، لانه صادر عن صميم مأساته ومأساة الآخرين ، وهو ابن النقمة وأبو الثورة . « وبعد ان طغى يأسه، شتم (فارس) البطالة والسجن والوجود دفعة واحدة . » (ص ١٨٢).

النقمة والغضب العميقان يرتكزان عند حنا إذن الى اسباب مادية اقتصادية تتصل بمعاش الناس ورزقهم ، وهما ليسا سطحيين او وقتيين . ولا يعودان لاسباب فردية الا بمقدار ما تتأثر حياة الفرد بمجمل حياة المجموع ، وإلا بقدر ما تخضع، كما تخضع حياة المجموع، للعوامل الاقتصادية في النظام السائد.

ان تأثر المؤلف بكاتبه المفضل مكسيم غوركي واضح ، لا في نوعية الاسلوب فحسب ، بل كذلك في نوعية الموضوع نفسه ونوعية الاشخاص الذين يفرضون انفسهم على انتباهه ، او ببساطة اكثر : ينقيهم هو ابطالاً لحوادثه. اولئك الناس البسطاء الذين يسمنا – إما اطبقنا الكتاب – ان نلتقي بهم في اول منعطف . والفارق بينه وبين غوركي في مذكراته او في «بين الناس»، ان غوركي ينصب من نفسه راوية يتحدث بالشخص الاول، بينما آثر حنا الوقوف على الحياد والتحدث بالشخص الثالث .

والناحية المهمة في هذا كله ان حنا استطاع ان ينجو مما يقع فيه الكثيرون ممن يبدأون بكتابة الرواية ، استطاع ان يتخلص من لهجة الاعترافات او طريقة كتابة المذكرات . لقد اوجد شيئاً اسمه رواية رغم التحفظات التي اشرت اليها . وما يمكن ان يدعى « بالتوتر الروائي » لا نفتقده الا في حدود معينة. لقد نقص علينا شيئاً من نفسه وشيئاً من ذكرياته ، وكان يمكن ان يعفي الزمن على «الحرارة» التي تلقح عادة مخيلة الفنان المبدعة ، ولكن فاصل الزمن هنا لعب دوراً معاكساً اذ خمّر مشاعر الماضي واحساساته وساعد ملكة الابداع .

هنالك بالطبع مآخذ على الرواية . أهمها ان وجه عبد القادر المناضل غير واضح . إنه واحد من الذين يسميهم أبو فارس بالطيبين : « لقد مر الطيبون بحيانا أيضاً يا فارس، » ولكننا لا نسمع به وبهم إلا من بعيد ، ويبدو لنا أبو فارس آخر الامر مثلاً بوجهه الوقور وتصرفاته الموزونة وشجاعته عند اللزوم ، أهم بكثير من عبد القادر الذي يمثل التهور الاحمق اكثر مما يمثل « الطيبين » حقاً . هناك ايضاً لوحات ، أو لنقل معالم باهتة . كهذا المقطع الذي تبوح فيه الى فارس زوج معلمه السابق بمتاعبها (ص ١٨٤ وما بعدها) ، وكذلك المقطع الذي نرى فيه فارساً يدخل دكان محمد الحلبي حيث اجتمع بعض الشبان على جري عادتهم (ص ٢٢٨ وما بعدها) .

ولكن الرواية تبقى مع ذلك متينة وحوادثها مناسبة وفي كثير من الاحيان فياضة ، يبدأها القارىء وينهيها في تشوق وتذوق وسلاسة .

دمشق — **صلاح دهني**

من رابطة الكتاب العرب

رحلة الى الحق

تأليف فاطمة البشرطية الحسنية

مطبعة دار الكتب ، بيروت – ٣٨٤ ص

•

عرفتها فعرفت اديبة ولدت وفي روحها نزعة الى الادب.. وفي نفسها شوق لمعاشرة اهله.. وجالستها وامتزجت بها اعواماً فلمست ظمأ الى البحث لا يرتوي ، وشعرت بانني امام مخلوقة ناضجة ، اذا تكلمت اقنعت واذا حاجت سمعت الرأي القوي الذي صقله التفكير المتواصل. تلك هي الآنسة الشريفة فاطمة البشرطية .

لقد قرأت كتابها « رحلة الى حق » فوجدتني كأنني امام مخلوق غريب في عالم الصخب والمادة .. مخلوق ابيض الثوب ذي جناحين يحلق بهما وبي الى علٍ فأعيش ساعات في دنيا كلها ورع وتقوى تنسيني ما حولي من مشاكل الحياة.

تبتدىء المؤلفة كتابها عن الصوفية والمتصوفين فتشرح لك ما هية التصوف كما عرفه ائمتهم وتخبرك بما اجمعوا عليه مما ذكره السيوطي في مؤلفاته ، ثم تستعرض آراء الغزالي وابن الفارض وابن عربي الاندلسي وغيرهم من كبار علمائه فتلمس انك امام اديبة عميقة البحث .. غاصت في خزانات الادب وقرأت كل ما الفه المؤلفون بالعربية عن هذا الموضوع ، وكل ما ترجم اليها من مؤلفات كبار المستشرقين امثال لويس ماسينيون ومارغريت سمث وغيرهما.

ثم تخلص المؤلفة الى التحدث عن والدها العظيم رأس الطريقة الشاذلية في عكاء فاذا بك امام مؤرخة لا تنسى كبيرة او صغيرة من موضوعها ، واذا بالشعور بالواجب يحرك قلمها فيخرج ما تكتب قطعة من الادب العاطفي الروحاني الرفيع .

وتذكرك المؤلفة في هذه الناحية بايفا كوري .. فقد ظلت مثلها مغمورة في دنيا المطابع والحروف حتى هزها الشعور بالواجب نحو امها فانتضت قلمها لتكتب عن التلميذة الخالدة فتبدع .. وتعرف في الاوساط الادبية بكتابها هذا ويقدر له من النجاح ما يقدر ..

هذا حال مؤلفة « رحلة الى الحق » يهزها الشعور بالواجب